بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين

الجزء الثالث

عبر أجواء رمضان المبارك

3/ رمضان شهر القرآن الكريم

أ / من أسرار الإعجاز في القرآن الكريم

• القرآن كلام الله القديم

إن القرآن المجيد ليس ألفاظا وعبارات يحاول الإنس والجن أن يحاكوها، إنما هو كسائر ما يبدعه الله يعجز المخلوقون أن يصنعوه. هو كالروح من أمر الله لا يدرك الخلق سره الشامل الكامل، وإن أدركوا بعض أوصافه وخصائصه وآثاره. والقرآن بعد ذلك منهج حياة كامل، منهج ملحوظ. فيه نواميس الفطرة التي تصرف النفس البشرية في كل أطوارها وأحوالها، والتي تصرف الجماعات الإنسانية في كل ظروفها وأطوارها. ومن ثم فهو يعالج النفس المفردة، ويعالج الجماعة المتشابكة، بالقوانين الملائمة للفطرة المتغلغلة في وشائجها ودروبها ومنحنياتها الكثيرة، يعالج علاجا متكاملا متناسق الخطوات في كل جانب في الوقت الواحد، فلا يغيب عن احتسابه احتمال من الاحتمالات الكثيرة ولا ملابسة من الملابسات المتعارضة في حياة الفرد وحياة الجماعة لأن مشرع هذه القوانين هو العليم بالفطرة في كل أحوالها وملابساتها المتشابكة.

أما النظم البشرية فهي متأثرة بقصور الإنسان وملابسات حياته، ومن ثم فهي تقصر عن الإحاطة بجميع الاحتمالات في الوقت الواحد. وقد تعالج ظاهرة فردية أو اجتماعية بدواء يؤدي بدوره إلى بروز ظاهرة أخرى تحتاج إلى علاج جديد. إن إعجاز القرآن أبعد مدى من إعجاز نظمه ومعانيه، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله هو عجز كذلك عن إبداع منهج كمنهجه، يحيط بما يحيط به.

واعلم أنه على حدة بصر السائق وحده تتوقف نجاة الركاب لا على حدة أبصارهم وقوة كل منها. وما الفائدة من قوة النظر عند الركاب وقائد السيارة أعمى ؟؟ والرسول الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نشأ يتيما فقيرا مات أبوه عبد الله وهو في بطن أمه آمنة بنت وهب. وماتت أمه هي الأخرى وهو في الربيع السادس من عمره، ولم يكن له سابق عهد بالقراءة أو الكتابة، لقبه قومه بالأمين منذ صغره، لم يكن يوما بالظنين ولم يجلس إلى منتديات الجاهلية المتفشية الموبوءة ولم يكذب قط في حياته، وكيف وهو المعصوم من ولادته وكذلك سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.. قال الشاعر في حقه صلى الله عليه وسلم:

لقبتموه أمين القوم في صغر وما الأمين على القوم بمتهم

لم يتلق دروسا في الفلك أو التنجيم أو الطب أو الهندسة أو العلوم أو الرياضة أو البلاغة.. قال تعالى في سورة النساء : ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾ (113). لم يُدَ لله أبٌ ولم تهدهده أم، كفله جده عبد المطلب ثم عمه أبوطالب. لقد أحزنه أمر الجاهلية وأضناه في ظلال قومه.

فكان دعاءه لهم بالهداية: « اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون » وكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم شديد الحياء لا يمكن أو يوضع موضع الشبهات أو الافتراءات للعناية الإلهية التي كانت تحيط به والتي أحاطت وتحيط دوما سائر أتباعه إلى يوم الدين.

فأين العقل البشري الذي يطيق أو يحتمل كل أو بعض ما تحدث عنه القرآن من علوم وطب وهندسة وتشريع إلخ... والقرآن كما تعلم ليس من قول البشر لأنه يعجز العرب جميعا وأهل الفصاحة والبيان، وينفي أن يأتوا بمثله ويعلق ذلك في صريح العبارة في قوله تعالى في سورة الإسراء: فقل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (88). يخبر الله تعالى أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلمهم واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا. فإن هذا أمر لا يستطاع وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الله الخالق القديم، لا نظير له ولا مثيل ولا عديل ؟؟ .

وقد حاول مسيلمة الكذاب أن يؤلف قرآنا فلم يفلح وانقلب مذؤوما مدحورا خاسرا خسران الدارين. وفيما قال وزعم أنه قرآن آخر أوحي إليه: " إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر ".. وقوله أيضا: " إنا أعطيناك الرحراح، فصل لربك وارتاح، أنه كان الحصان الرماح ". وهل يقارن الكوثر وهو الخير الكثير والسعادة الأبدية في العاجلة والآجلة بالرحراح الذي يعني العيش الرغد المادي المحدود؟ فليس أمامنا مجال للمقارنة. فهذه الكلمات الجوفاء الفارغة تتحدث عن نفسها تفاهة وقصورا. ونكون قد أرزينا بالأدب والذوق الرفيع لو أتعبنا أنفسنا في نقده كما قال الدكتور السيد الجميلي في كتابه: " الإعجاز الطبي في القرآن ".

وانظر كيف يوضح الجاحدون الكافرون وجهة اعتراضهم الشخصية.. قال تعالى عنهم في سورة النحل: ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون: إنما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ (103). أجل، فهم يعرفون أنه تنزيل من رب العالمين لكن الاختلاف هو في شخص النبي المرسل إليهم عليه الصلاة والسلام، فهم يريدون رسولا بما تهوى نفوسهم ويريدون أن يتبعوا الحق الذي يوافق مزاجهم ولا يزلزل عاداتهم وجاهليتهم.. قال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿ أَفَلَمُ يَدِيرُوا القُولُ ؟ أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين؟ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون؟ أم يقولون به جنة؟ بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن، بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون ﴾ (68–71).

إن مثل ما جاء به سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يملك من يتدبره أن يظل معرضا عنه، ففيه من الجمال وفيه من الكمال وفيه من التناسق، وفيه من الجاذبية، وفيه موافقة الفطرة، وفيه من الإيحاءات الوجدانية، وفيه من غذاء القلب، وفيه من زاد الفكر، وفيه من عظمة الاتجاهات، وفيه من قويم المناهج، وفيه من محكم التشريع، وفيه من كل شيء ما يستجيش كل عناصر الفطرة ويغذيها ويلبيها " أفلم يدبروا القول؟ " فهذا سر إعراضهم عنه لأنهم لم يدبروه فكان بدعا في مألوفهم ومألوف آبائهم أن يجيئهم رسول أو أن يجيئهم بكلمة التوحيد، وذلك تاريخ الرسالات كلها يثبت أن الرسل جاءوا قومهم تترى، وكلهم جاء بالكلمة الواحدة التي يدعوهم إليها هذا الرسول. ﴿ أم لم يعرفوا رسولهم؟ ﴾ وقد يكون هذا هو سر الإعراض والتكذيب! كلا! بل يعرفون رسولهم حق المعرفة، يعرفون شخصه الكريم ونسبه، ويعرفون أكثر من أي أحد صفاته: يعرفون صدقه وأمانته حتى لقبوه قبل

الرسالة بالأمين، ويعرفون وهم على ثقة أنه العاقل الكامل الذي لا يعرفون عنه زلة في تاريخه الطويل، ومع ذلك يقولون "به جِنة". يا سبحان الله!!، إنه ما من شبهة من هذه الشبهات يمكن أن يكون لها أصل. إنما هي كراهية أكثرهم للحق لأنه يسلبهم القيم الباطلة التي بها يعيشون، ويصدم أهواءهم المتأصلة التي بها يعتزون.

والحق لا يمكن أن يدور مع الهوى وبالحق تقوم السماوات والأرض وبالحق يستقيم الناموس وتجري السنن في هذا الكون الفسيح وما فيه ومن فيه. فالحق واحد ثابت، والأهواء كثيرة متقلبة بالحق الواحد يدبر الكون كله، فلا ينحرف ناموسه لهوى عارض، ولا تتخلف سنته لرغبة طارئة ولو خضع الكون للأهواء العارضة، والرغبات الطارئة لفسد كله ولفسد الناس معه، ولفسدت القيم والأوضاع، واختلت الموازين والمقاييس، وأرجحت كلها بين الغضب والرضى، والكره والبغض والرغبة والرهبة، والنشاط والخمول، وسائر ما يعرض من الأهواء والمواجد والانفعالات والتأثرات، وبناء الكون المادي واتجاهه إلى غايته كلاهما في حاجة إلى الثبات والاستقرار والاطراد على قاعدة ثابتة ونهج مرسوم، لا يختلف ولا يتأرجح ولا يحيد.

ومن هذه القاعدة الكبرى في بناء الكون وتدبيره، جعل الإسلام التشريع للحياة البشرية جزءا من الناموس الكوني، تتولاه اليد التي تدّبر الكون كله وتنسق أجزاءه جميعا. والبشر جزء من هذا الكون، خاضع لناموسه الكبير فأولى أن يشرع لهذا الجزء من يشرع للكون كله، ويدبره في تناسق عجيب، بذلك لا يخضع نظام البشر للأهواء فيفسد ويختل: ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن ﴾، إنما يخضع للحق الكلي ولتدبير صاحب التدبير الرب المتعالي الحكيم الخبير.

وهذه الأمة التي جاء لها الإسلام كانت أولى الأمم بإتباع الحق الذي يتمثل فيه، فمع أنه الحق هو كذلك مجد لها وذكر، ولولاه ماكان لها ذكر في العالمين.. وقد ظل ذكرها بالإسلام يدوي في آذان القرون طالماكانت به مستمسكة وقد تضاءل ذكرها عندما تخلت عنه، فلم تعد في العير ولا في النفير، ولن يقوم لها ذكر إلا أن تفيء إلى عنوانها الكبير!!.

لقد اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم معجزة من جنس ما اشتهر العرب بالنبوغ فيه لأن كل رسول تكون معجزته من جنس ما نبغت فيه أمته. ولما كان قوم

فرعون أهل علوم رياضية وطبيعية وأولى سحر وصناعة أتى الله رسوله سيدنا موسى آيات كان العلماء والسحرة أعلم الناس بها بأنها من عند الله لا من كسب نبي الله موسى، كانت معجزة سيدنا موسى عصا انقلبت حية تسعى، فلقفت كل حبال السحرة. قال تعالى عن تلك المناظرة التاريخية الفاصلة بين الحق والباطل وبين الكفر والإيمان: ﴿ قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم. وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هناك وانقلبوا صاغرين وألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ﴿ (الأعراف/116-122).

ولما كان قوم سيدنا عيسى بن مريم عليهما السلام قد اشتهروا بالطب وغلب عليهم إنكار الروح آتاه الله من الآيات إبراء الأكمه والأبرص والنفخ في هيئة الطير فيكون طائرا وإحياء الأموات بإذن الله سبحانه..

وأعلم أن معجزات الرسل السابقين الدالة على صدق نبوتهم هي وقائع تنقضى يراها الذين عاصروا الأنبياء فيؤمنون حق الإيمان بمن جاءت على يدهم ولا يراها الذين يأتون من بعدهم بل تصل إليهم أخبارها فيضعف تأثيرها على الأمم التالية. ثم إن المعجزات توفق عقول تلك الأزمان التي كان فيها العقل في طور الطفولة، والآن بعد أن ترقى العقل وكثرت المعارف ودخلت الشبهات على الأديان ضعف تأثير هذه المعجزات على اتباع الأديان أو بالأحرى ضعف الإيمان، وتسرَّى الإلحاد فكان الدين بحاجة إلى دلائل وبراهين على صحته غير البراهين السالفة.

ومما يجهله أكثر الناس أن الإسلام سار على غير سمت الأديان التي كانت قبله وسن نهجا جديدا في البرهان على صحته وعلى أنه من عند الله تعالى. فالقرآن هو الكتاب المعجزة للبشر بهدايته وتشريعه وأسلوبه ومعانيه التي تتميز بخلودها وبقاءها على مر الزمن. فقد أنزل القرآن بعد أن ترقى العقل البشري، فكان البرهان الذي أتى به يتفق مع هذا الترقي، وكان الدواء والشفاء لكل الأدواء.

● القرآن محفوظ من كل تحريف

وإذا تأملت قليلا في الماضي البعيد تدرك جليا أنه لم تعن أمة في العالم بكتاب سماوي أو أرضي عناية الأمة الإسلامية بالقرآن الكريم، ولم يحط كلام إلهي أو بشري بمثل ما أحيطت به آياته

من وسائل الحفظ والرعاية والتقديس. فقد كانت تنزل الآية أو الآيات منه فيحفظا أولا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم عن ظهر قلب لأنه وحي إلهي، والذي يعرفه الإمام محمد عبدو رحمه الله بقوله في رسالة التوحيد: " إن الوحي عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت، ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور. هذا التعريف يشمل أنواع الوحي الثلاثة الواردة في قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء، إنه على حكيم (51).

فالوحي هنا إلقاء المعنى في القلب، والكلام من وراء حجاب هو أن يسمع كلام الله من حيث لا يراه كما كلم الله سيدنا موسى عليه السلام وأما الثالث فهو ما يلقيه ملك الوحي سيدنا جبريل عليه السلام من الله إلى رسوله فيراه متمثلا بصورة رجل.. وكان يتمثل لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مرارا على صفة أحد صحابته الكرام دحية الكلبي رضي الله عنه، وقد جاءه كذلك على مرأى ومسمع من صحابته يوم أن سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان وعلامات الساعة، أو غير متمثل بأن يسمعه منه أو يعيه بقلبه.. لا كما يزعم بعض كتاب الغرب حيث يصف الوحي الذي كان ينزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بأنه نوع من " الهيستريا ".. فهذا الافتراء لا يرتكز على أي أساس علمي أو واقعي وذلك من وجوه كما قال الأستاذ محمد فريد وجدي رحمه الله:

- "منها أن الهذيان " الهستيري " لا يحدث إلا مصحوبا بأعراض ثقيلة من التخبط والاضطراب والصياح والعويل، وهو مالم يحصل للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم حتى في أثقل حالات الوحى عليه.
- ومنها أن ما ينسب "للهستيريا " من هذيان يحدث في اثناء النوبة فإذا أفاق المريض لم يذكر شيئا مما قاله. وهكذا على عكس حالة الرسول صلى الله عليه وسلم فقد كان لا ينطق في أثناء الوحى بشيء حتى يتم، فيعيد كل ما ألقى إليه، ويأمر بتدوينه.
- ومنها أن مواضيع الهذيانات الهستيرية لا تخرج عادة إلا عن تصورات وهمية تناسب الأعصاب المتعبة المريضة كتخيل المريض رؤية روح شريرة تتوعده بالأذى أو تتقصده بالقتل أو تقلقه بالاستهزاء والتحقير، ولم يشاهد هذيان هستيري قط موضوعه نشر فضيلة أو إذاعة هداية "

ثم لم يكن القرآن كغيره من الكتب المقدسة التي سبقته محتكرا في يد طائفة من الطوائف حتى يتسرب إلى الذهن ظن أو احتمال طروء التحريف إليه قصدا أو عفوا بل كان عاما شائعا بين أيدي المسلمين، أمروا أن يتعبدوا بتلاوته في صلواتهم وأن يحكموا به، فكيف يتصور أن يقع فيه تحريف ولا يدري به جمهورهم وهم إذ ذاك جاعلوه دستورهم في كل محاولاتهم الدينية والاجتماعية ؟؟.

ثم إن القرآن قبل أن يجمع في زمن سيدنا أبي بكر الصديق رضوان الله عليه كانت أجزاؤه المكتوبة موجودة عند الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في بيته، وكثير من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.. وكان هؤلاء يتلونه في بيوتهم. ولما جمعه أخيرا سيدنا عثمان بن عفان ذو النورين، رضي الله عنه، كان أكثر كتابه وحفاظه لا يزالون على قيد الحياة، فكيف يعقل أن يتطرق إليه التحريف مع هذا؟ وصدق الله تعالى إذ قال في محكم تنزيله: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴿ (الحجر / 9).

ولننظر نحن اليوم من وراء القرون إلى وعد الله الحق بحفظ هذا الذكر، فنرى فيه المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب إلى جانب غيرها من الشواهد الكثيرة ونرى أن الأحوال والظروف والملابسات والعوامل التي تقلبت على هذا الكتاب المقدس في خلال هذه القرون ما كان يمكن أن تتركه مصونا محفوظا، لا تتبدل فيه كلمة، ولا تحرف فيه جملة، لولا أن هنالك قدرة خارجة عن إرادة البشر، أكبر من الأحوال والظروف والملابسات والعوامل، تحفظ هذا الكتاب من التغيير والتبديل وتصونه من العبث والتحريف.

لقد جاء على هذا القرآن زمان في أيام الفتن الأول كثرت فيه الفرق، وكثر فيها النزاع، وطمت فيه الفتن، وتماوجت فيه الأحداث، وراحت كل فرقة تبحث لها عن سند في هذا القرآن وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل في هذه الفتن وساقها أعداء هذا الدين الأصلاء من اليهود خاصة ثم من القوميين دعاة " القومية " الذي تسموا "بالشعوبيين". ولقد أدخلت هذه الفرق على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحتاج إلى جهد عشرات العلماء المجتهدين الأتقياء الأذكياء، عشرات من السنين لتحرير سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وغربلتها وتنقيتها من كل دخيل عليها من كيد أولئك الكائدين لهذا الدين. كما استطاعت هذه الفرق في تلك الفتن أن ثؤول

معاني النصوص القرآنية وفق هواها وأن تحاول أن تلوى هذه النصوص لتشهد لها بما تريد تقريره من الأحكام والاتجاهات كالذي يفر مثلا من النصوص المحكمة التي تحرم الخمور والفجور والربا والقمار وما إلى ذلك ويرفع عاليا شعار الآية التي تنص على أن في العسل شفاء للناس، وما مصلحته في ذلك إلا أنه أراد فقط أو يروج لبضاعته.. وقد فعل.. فالقرآن كل لا يتجزأ، وليس لأحد أن يقول فيه برأيه، وليس للحق أن يخضع لرغبات الناس كلا! بل عليهم أن يأتوه خاضعين، موقنين صادقين...

والحمد لله أن عجزت هذه المكائد جميعا وفي أشد أوقات الفتن حلوكة واضطرابا أن تحدث حدثا واحدا في نصوص هذا الكتاب المحفوظ، وبقيت نصوصه كما أنزلها الله تعالى على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، حجة باقية على كل محرف وكل مسؤول وحجة باقية كذلك على ربانية هذا الذكر المحفوظ.

ثم جاء على المسلمين زمان ما نزال نعانيه، ضعفوا فيه عن حماية أنفسهم وعن حماية عقيدتهم وعن حماية نظامهم، وعن حماية أرضهم، وعن حماية أعراضهم وأموالهم وأحلوا مكانه كل منكر فيهم.. عقولهم وادراكهم، وغير عليهم أعداؤهم الغالبون كل معروف عندهم وأحلوا مكانه كل منكر فيهم.. كل منكر من العقائد والتصورات ومن القيم والموازين، ومن الأخلاق والعادات، ومن الأنظمة والقوانين، وزينوا لهم الانحلال والفساد والتوقح والتعري من كل خصائص الانسان باسم التحرر والتمدن والانفتاح، وردوهم إلى حياة كحياة الحيوان... وأحيانا إلى حياة يشمئز منها الحيوان ذاته. ووضعوا لهم ذلك الشركله تحت عنوانات براقة من "التقدم" و "التطور" و "العلمية" و "الانطلاق" و "تحطيم الأغلال" و "التروية" و "التجديد " إلى آخر تلك الشعارات والعناوين وأصبح المسلمون وا آسفاه! بالأسماء وحدها مسلمين ليس لهم من هذا الدين قليل ولا كثير وباتوا غثاء كغثاء السيل لا يمنع ولا يدفع، ولا يصلح لشيء إلا أن يكون وقودا للنار فهو وقود هزيل. ولكن أعداء الدين بعد هذا كله، لم يستطيعوا تبديل نصوص هذا الكتاب ولا تحريفها ولم يكونوا في هذا من الزاهدين، فلقد كانوا أحرص الناس على بلوغ هذا الهدف لو كان يبلغ، وعلى نيل هذه الأمنية لو كانت تنال.

ولقد بذل أعداء هذا الدين وفي مقدمتهم اليهود رصيدهم من تجارب أربعة آلاف سنة أو تزيد في الكيد لدين الله، وقدروا على أشياء كثيرة، قدروا على الدس في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى تاريخ الأمة المسلمة، وقدروا على تزوير الأحداث ودس الأشخاص في جسم المجتمع

المسلم ليؤدوا الأدوار التي يعجزون عن أدائها وهم سافرون. وقدروا على تحطيم الدول والمجتمعات والأنظمة والقوانين وقدروا على تقديم عملائهم الخونة في صورة الأبطال الأمجاد ليقوموا لهم بأعمال الهدم والتدمير في أجسام المجتمعات الاسلامية على مدار القرون وبخاصة في العصر الحديث ولكنهم لم يقدروا على شيء واحد والظروف الظاهرية كلها مهيأة له، لم يقدروا على إحداث شيء في هذا الكتاب المحفوظ، الذي لا حماية له من أهله المنتسبين إليه وهم بعد أن نبذوه وراء ظهورهم غثاء كغثاء السيل لا يدفع ولا يمنع، فدل هذا مرة أخرى على ربانية هذا الكتاب وشهدت هذه المعجزة الباهرة بأنه حقا تنزيل من العزيز الحكيم.

لقد كان هذا الوعد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجرد وعد أما هو اليوم، من وراء كل تلك الأحداث الضخام، ومن وراء كل تلك القرون الطوال، فهو المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب و الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، الربانية التى لا يماري فيها إلا عنيد جهول...

• من وجوه إعجاز القرآن

وللقرآن وجوه كثيرة من الإعجاز تشهد أنه وحى إلهي، منها:

* الفصاحة العجسة

إن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتعرض إليه من الوجود من ذكر قصص، ومواعظ وحكم وأحكام ووعد ووعيد وأخلاق كريمة وغير ذلك، وأننا نجد كلام البليغ والشاعر والمفلق يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور. فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو، ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين، ومنهم من يجوّد في بعض النواحي من وصف الروض أو الخمر أو الغزل أو الحكم أو غير ذلك.. ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب وبزُهير إذا رغب ومثل ذلك يختلف في الخطاب والرسائل وسائر أجناس الكلام، ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حساب الأحوال التي يتصرف فيها، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى، فإذا جاء الى غيره قصر عنه، وبان الاختلاف على شعره. ومتى تأملت نظم القرآن

وجدت أن جميع ما يتصرف فيه من الوجوه لا تفاوت فيها ولا انحطاط عن المنزلة العليا من البلاغة كما قال الإمام الباقلاني رحمه الله.

وناحية أخرى جديرة بالاعتبار وهي أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة، فمن المعترف به أن فصاحة العرب كان أكثرها في وصف الأطلال والحنين الى الأحبة والإبل والصيد، والغزل والمدح والفخر والهجاء، والبلاغة في هذه الأشياء المحسوسة متسعة جدا لأن طبائع أكثر الناس تكون مائلة إليها، كما أن كثيراً من الشعراء عالجوا هذه النواحي فعلى هذا يكون المتأخر المتبع لأقوال الشعراء الذين سبقوه تحصل لهم ملكة في البلاغة في هذه الميادين بعد الممارسة. وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم رأيناه لم يتعرض لهذه الأشياء البتّة، فكان من الطبيعي أن تحصل فيه الألفاظ الفصيحة التي اتفقت العرب عليها، ولكن القرآن تعرض لنواح أخرى لم تكن معهودة عند العرب كالتحدث عن الله وعظمته ووصف قدرته، والدعوة الى عبادته، وتنزيهه عما لا يليق به، ووصف ما أعده من النعيم للذين يطيعونه والعذاب للكفرة والعاصين، وكذلك يقص القرآن الكريم أنباء الرسل مع قومهم، وما تحتويه من العبر وأنواع العبادات، والحث على مكارم الأخلاق وتحريم القبائح، وأسس التشريع في المال، والحكم والأسرة وغير ذلك... وأمثال هذه الأمور تستعصى على البليغ فلا يستطيع التعبير عنها ببلاغته المعهودة. وإذا تمعنا في آيات القرآن الكريم نراه عالج جميع هذه الأمور في نهاية الفصاحة واستخدم لذلك ضروب التأكيد، وأنواع التشبيه والتمثيل، وأصناف الاستعارة وغير ذلك من فنون البلاغة التي بهرت قراء العربية في جميع العصور. فمن أين لأمّى كالنبي عليه السلام أو متعلم مهما أوتى من العلم أن يؤلف ستة ألاف آية (عدد آيات القرآن على التقريب) بهذه الفصاحة والاتساق؟ إن في ذلك لآية على أن القرآن منزَّل من عند الله جل علاه..

* سلامة القرآن من التناقض والخطأ

وشيء آخر هو أن القرآن على ضخامته يخلو من التعارض والتناقض والخطأ والاختلاف، خلافا لجميع كلام البشر. فإننا نجد كبار العلماء في كل عصر، يصنفون ثم يطبعون وينشرون مؤلفاتهم ثم يظهر لهم أو لغيرهم كثير من التعارض والاختلاف والأخلاط اللفظية والمعنوية، أو تكون مؤلفاتهم أفضل الكتب وأحكمها في عصر مؤلفيها وبعد عصرهم بعدة عصور، ثم ترتقى العلوم وتتغير أصول

العمران فيظهر الاختلاف والخطأ في الكثير مما فيها وهذا أمر مشهور عند العلماء. وقد ظهر القرآن الكريم على لسان أمّي لم يتعلم القراءة ولا الكتابة، فكيف يمر عليه أربعة عشر قرنا تتغير فيه العقلية البشرية ولا يظهر فيه اختلاف؟ بل نرى الأصول التي أتى بها القرآن تتناسب مع كل زمان ومكان..

وعن خصائص إعجاز القرآن يقول الأستاذ الرافعي رحمه الله: " إننا نرى أسلوب القرآن من اللين.. والمرونة في التأويل بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة المتقابلة التي تخرج من طبائع العصور المختلفة، فهو يفسر في كل عصر بنقص من المعنى وزيادة فيه وقد فهمه عرب الجاهلية الذين لم يكن لهم إلا الفطرة، وفهمه كذلك من جاء بعدهم من الفلاسفة وأهل العلوم، وفهمه زعماء الفرق المختلفة على ضروب من التأويل و أثبتت العلوم الحديثة كثيرا من حقائقه التي كانت مغيبة.. وإن ما عهد من كلام الناس لا يحتمل كل ذلك ولا بعضه ". وليس شيء في أسلوب القرآن في بعض مواضعه مما يدخله في شبه من كلام أو يرده إلى طبع معروف من طباع البُلغاء.

وإلى هذه الحكمة الباهرة يشير الله تعالى في سورة النساء ويقول: ﴿ أَفَلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴿ (32). وفي هذا العرض، وهذا التوجيه منتهى الإكرام للإنسان وإدراكه وشخصيته كما أن فيه منتهى النصفة من الاحتكام إلى هذا الإدراك في ظاهرة لا يعييه إدراكها وهي في الوقت ذاته دلالة لا تمارى. والتناسق المطلق الشامل الكامل هو الظاهرة التي لا يخطئها من تدبر هذا القرآن أبدا، ومستوياتها ومجالاتها مما تختلف العقول والأجيال في إدراك مداها. ولكن كل عقل وكل جيل يجد منها بحسب قدرته وثقافته وتجربته وتقواه ما يملك إدراكه في محيط يتكيف بمدى القدرة والثقافة والتجربة والتقوى. ومن ثم فإن كل أحد وكل جيل مخاطب بهذه الآية الكريمة، ومستطيع عند التدبر وفق منهج مستقيم أن يدرك هذه الظاهرة، ظاهرة عدم الاختلاف أو ظاهرة التناسق ما تهيئه له قدرته وثقافته وتجربته وتقواه.

وإذا كان الفارق بين صنعة الله وصنعة الإنسان واضحا كل الوضوح في جانب التعبير اللفظي والأداء الفني فإنه أوضح من ذلك في جانب التفكير والتنظيم والتشريع. وما من نظرية بشرية وما من مذهب بشري إلا وهو يحمل الطابع البشري، جزئية النظر والرؤية، والتأثر الوقتي بالمشكلات الوقتية، وعدم رؤية المتناقضات في النظرية أو المذهب أو الخطة، التي تؤدي إلى الاصطدام بين مكوناتها، إن عاجلا أو آجلا ،كما تؤدي إلى إيذاء بعض الخصائص في الشخصية البشرية الواحدة التي لم

يحسب حساب بعضها، أو في مجموعة الشخصيات الذين لم يحسب حساب كل واحد منها... إلى عشرات ومئات من النقائض والاختلاف، الناشئة من طبيعة الإدراك البشري المحدود، ومن الجهل بما وراء اللحظة الحاضرة، في أي لحظة حاضرة! وعكس ذلك كله هو ما يتسم به المنهج القرآني الشامل المتكامل الثابت الأصول وثبات النواميس الكونية الذي يسمح بالحركة الدائمة مع ثباته، كما تسمح بها النواميس الكونية "...

ويضيف الأستاذ محمد قطب رحمه الله إلى ما سبق قائلا: " وتدبر هذه الظاهرة في آفاقها هذه قد لا يتسنى لكل إدراك ولا يتسنى لكل جيل، بل المؤكد أن كل إدراك سيتفاوت مع الآخر في إدراكها، وكل جيل سيأخذ بنصيبه في إدراكها ويدع آفاقا منها للأجيال المترقية، في جانب من جوانب المعرفة والتجربة.. إلا أنه يتبقى من وراء كل الاختلاف البشري الكثير في إدراك هذه الظاهرة، كاختلافاته الكثيرة في كل شيء. بقية يلتقي عليها كل إدراك، ويلتقي عليها كل جيل وهي أن هذه الصنعة شيء وصنعة البشر شيء آخر وأنه لا اختلاف في هذه الصنعة ولا تفاوت، وإنما وحدة وتناسق.. ثم يختلف الناس بعد ذلك ما يختلفون في إدراك آماد وآفاق وإبعاد وأنواع ذلك التناسق".

وإلى هذا القدر الذي لا يخطئه متدبر، حين يتدبر يكل الله تلك الطائفة كما يكل كل أحد وكل جماعة وكل جيل.. وإلى هذا القدر من الإدراك المشترك يكل إليهم الحكم على هذا القرآن، وبناء اعتقادهم في أنه من عند الله ولا يمكن أبدا أن يكون من عند غير الله جل علاه..

إن مثل هذه التوجيهات في القرآن الكريم يساء إدراكها وإدراك مداها. فيذهب بها جماعة من المفكرين الإسلاميين قديما وحديثا، إلى إعطاء الإدراك البشري سلطة الحكم النهائية في أمر الدين كله، ويجعلون منه ندا لشرع الله بل يجعلونه هو المسيطر على شرع الله تعالى. الأمر ليس كذلك.. الأمر أن هذه الأداة العظيمة، أداة الإدراك البشري، هي بلا شك موضع التكريم من الله سبحانه، ومن ثم يكل إليها إدراك الحقيقة الأولى: حقيقة أن هذا الدين من عند الله، لأن هناك ظواهر يسهل إدراكها، وهي كآية بذاتها للدلالة، دلالة هذا الإدراك البشري ذاته، على أن هذا الدين من عند الله، لا من صنع البشر. ومتى أصبحت هذه القاعدة الكبيرة مسلَّما بها أصبح من منطق هذا الإدراك ذاته أن يسلم، بعد ذلك تلقائيا بكل ما ورد في هذا الدين، ككل لا يتجزأ. لا يهم عندئذ أن يرى " المصلحة الخفية أولا يدركها. فالحكمة متحققة حتما ما دام من عند الله، ولا يهم عندئذ أن يرى " المصلحة

"متحققة فيه في اللحظة الحاضرة. فالمصلحة متحققة حتما ما دام من عند الله جل علاه.. والعقل البشري ليس ندا لشريعة الله، فضلا على أن يكون الحاكم عليها، لأنه لا يدرك إلا إدراكا ناقصا في الممدى المحدود، ويستحيل كما قال الإمام الشهيد سيد قطب رحمه الله أن ينظر من جميع الزوايا إلى جميع المصالح لا في اللحظة الواحدة ولا في التاريخ كله.. بينما شريعة الله تنظر هذه النظرة، فلا ينبغي أن يكون الحكم فيها أوفي حكم ثابت قطعي من أحكامها موكولا إلى الإدراك البشري... وأقصى ما يتطلب من الإدراك البشري أن يتحرى إدراك دلالة النص وانطباقه، لا أن يتحرى المصلحة أو عدم المصلحة فيه.. وقد اخطأ الذين زعموا باجتهادهم أنه يجب على الله تعالى فعل الصلاح والأصلح، الصلاح كما يفهمونه بإدراكهم الناقص والأصلح الذي يعونه بعقولهم المحدودة، أرادوا أن يعللوا أفعال الله وهم بشر مخطئون.. وكيف ذلك؟ وهذا الذي جعل الإمام اللقاني رحمه الله يرد عليهم ردا زاجرا في جوهرته قائلا:

وقولهم إن الصلاح واجب عليه زور ما عليه واجب

فالمصلحة متحققة أصلا بوجود النص من قِبل الله تعالى. إنما يكون هذا فيما لا نص فيه مما يجد من الأقضية.. وهذا يرد إلى الله ورسوله وهذا هو مجال الاجتهاد الحقيقي إلى جانب الاجتهاد في فهم النص والوقوف عنده، لا تحكيم العقل البشري في أن مدلوله يحمل المصلحة أو لا يحملها. يجب أن نحترم الادراك البشري بالقدر الذي أراده الله له من التكريم في مجاله الذي يحسنه، ثم لا نتجاوز به هذا المجال إلى مقام التقديس، كي لا نمضي في التيه بلا دليل، كما تاه أهل الكتاب من قبل وأضلوا من بعد أقواما آخرين.

* اشتمال القرآن على أنباء غيبية

ومن الدلائل على إعجازه وكونه وحيا إلهيا اشتماله على أنباء غيبية صدقتها الحوادث، وهذه النبوءات تشتمل على تأكيدات الله بأنه سينصر المسلمين على أعدائهم. ومما يدهش العقل ولا يمكن تعليله إلا بأنه وحي الإلهي وهو مجيء بعض هذه التأكيدات على حالة يخيل للناظر فيها عند نزولها أنه مبالغ فيها، من ذلك تبشير المؤمنين بأنهم سيخولون خلافة الله في الأرض، قال تعالى في سورة النور: ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما

استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون (55).

إن حقيقة الإستخلاف في الأرض ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم، إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الاصلاح والتعمير والبناء، وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه، وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض، اللائق بخليفة أكرمها الله تعالى.

إن الإستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والاصلاح لا على الهدم والافساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة لا على الظلم والقهر، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان.. فأما الذين يملكون فيفسدون في الأرض وينشرون فيها البغي والجور وينحدرون إلى مدارج الحيوان المفترسة، فهؤلاء ليسوا مستخلفين في الأرض، إنما هم مبتلون بما هم فيه أو مبتلى بهم غيرهم، ممن يسلطون عليهم لحكمة يقدرها الله.

قال الربيع بن أنس عن أبي العالية رضي الله عنه في هذه الآية: "كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده، وإلى عبادته وحده بلا شريك له، سرا وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال حتى أمروا بعد الهجرة إلى المدينة، فقدموها فأمرهم الله بالقتال فكانوا بها خائفين، يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح، فصبروا على ذلك ما شاء الله، ثم إن رجلا من الصحابة قال: يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لن تصبروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم ليست فيه حديدة ». وأنزل الله هذه الآية، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فأمنوا ووضعوا السلاح ثم إن الله قبض نبيه صلى الله عليه وسلم، فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا فيه، فأدخل الله عليهم الخوف، فاتخذوا في الحجزة والشرط، وغيروا فغير بهم".

لقد تحقق وعد الله مرة، وظل متحققا وواقعا ما قام المسلمون على شرط الله ووعد الله وعهده: يعبدونني لا يشركون بي شيئا ﴾. لا من الألهة ولا من الشهوات ويؤمنون من الإيمان ويعملون صالحا، ووعد الله مذخور لكل من يقوم على الشرط من هذه الأمة إلى يوم القيامة، إنما يبطئ النصر والإستخلاف والتمكين والأمن لتخلف شرط الله في جانب من جوانبه الفسيحة أو في تكليف من تكاليفه الضخمة حتى إذا انتفعت الأمة بالبلاء وجازت الابتلاء، وخافت فطلبت الأمن وذلت فطلبت العزة، وتخلفت فطلبت الإستخلاف، كل ذلك بوسائله التي أرادها الله لها وبشروطه التي قررها الله، ووعد الله يتحقق ولا يتخلف ولا تقف في طريقه قوة من قوى الأرض جميعا ولن تستطيع.

إن الإسلام حقيقة ضخمة لا بد أن يتأملها من يريد الوصول إلى حقيقة وعد الله في تلك الآيات. ولابد أن يبحث عن مصداقها في تاريخ الحياة البشرية، وهو يدرك شروطها على حقيقتها، قبل أن يتشكك فيها أو يرتاب، أو يستبطئ وقوعها في حالة من الحالات.. فالعيب في المسلمين لا في الإسلام!!.

إنه ما من مرة سارت هذه الأمة على نهج الله، وحكمت هذا المنهج في الحياة وارتضته في كل أمورها إلا تحقق لها وعد الله بالإستخلاف والتمكين والأمن، وما من مرة خالفت عن هذا المنهج كما هي اليوم والأمس القريب، إلا تخلفت في ذيل القافلة وذلت، وطرد دينها من الهيمنة على البشرية واستدها الخوف وتخطفها الأعداء...

وقد أخبر القرآن الكريم من بين الغبيات التي ظهرت من قبل وتظهر مع تطور الأزمان وحاجيات الناس، بغلبة الروم في بضع سنين على الفرس المشركة. قال تعالى في سورة الروم: ﴿ أَلَم، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم ومن بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿ (الروم/1-6). ثم جاءت النبوة الصادقة كما أخبر القرآن الكريم وذلك تأييدا لدعوة التوحيد التي جاء بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. لقد روى ابن جرير بإسناده، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: « كانت فارس ظاهرة على الروم، وكان المشركون يحبون أن تظهر الروم على فارس، لأنهم المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس، لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم. فلما نزلت: ﴿ أَلَم، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غارس غلبهم سيغلبون في بضع سنين ﴾ قالوا: يا أبا بكر إن صاحبك يقول: إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين. قال صدق. قالوا: ها لك أن نقامرك (جاء ذلك قبل تحريم الرهان بوصفه من الميسر) في بضع عنين فمضت السبع ولم يكن شيء، ففرح المشركون بذلك فشق فبيات المشركون بذلك فشق في أربع قلائص إلى سبع سنين فمضت السبع ولم يكن شيء، ففرح المشركون بذلك فشق فبيات الروم على أربع قلائص إلى سبع سنين فمضت السبع ولم يكن شيء، ففرح المشركون بذلك فشق فبيات المؤم وكان بوصفه من الميسر)

على المسلمين، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما بضع سنين عندكم؟ قالوا دون العشرة قال: اذهب فزايدهم وازدد سنتين في الأجل. قال فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس. ففرح المؤمنون بذلك ».

ولهذا الحدث العظيم في تاريخ الديانات إيحاءات كثيرة منها:

(أولا) ذلك الترابط بين الشرك والكفر في كل مكان وزمان أمام دعوة التوحيد والإيمان، ومع أن الدول قديما لم تكن شديدة الاتصال، والأمم لم تكن وثيقة الارتباط كما هو الشأن في عصرنا الحاضر. مع هذا فإن المشركين في مكة كانوا يحسون أن انتصار المشركين في أي مكان على أهل الكتاب هو انتصار لهم، وكان المسلمون كذلك يحسون أن هناك ما يربطهم بأهل الكتاب، وكان يسؤهم أن ينتصر المشركون في أي مكان وكانوا يدركون أن دعوتهم وأن قضيتهم ليست في عزلة عما يجري في أنحاء العالم من حولهم، ويؤثر في قضية الكفر والإيمان... وهذه هي الحقيقة البارزة التي يغفل عنها الكثيرون من أهل زماننا، ولا ينتبهون إليها كما انتبه المسلمون والمشركون في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا. ومن ثمة ينحصرون داخل حدود جغرافية أو جنسية، ولا يدركون أن القضية في حقيقتها هي قضية الكفر والإيمان كما هي الحال اليوم بالنسبة لإخواننا في فلسطين وفي البوسنة والهرسك وهنا وهناك والذين كانوا ولا زالوا يعانون من وسائل التعذيب والتقتيل الوحشية على أيدي النازية الجديدة، الصهيونية أعنى والصربية والصليبية.. ومن وراء هذا الجدار أمم عظمى تجتمع على قرار وسرعان ما تلغيه. ألفاظها تندد بهذا الإجرام ضد الأبرياء وموقفها في الميدان مناقض أو مناهض يؤيد الكفر على الإيمان... فهذه الولايات المتحدة مثلا تحرم صناعة الأسلحة الدفاعية ولو قلت فعاليتها على العراق، وتجيز من ناحية أخرى إسرائيل على كل عدوان وتؤيدها بالمال والعتاد ووسائل الدمار ثم ترفع عاليا شعار السلام في " المنطقة "... وتريد أن ينظر العرب والمسلمون عامة إلى اليهود نظرة أخوة صادقة وهي التي تبدأ بهدم صرح السلم والسلام بمعاويل العنصرية الدينية... شأنها شأن منظمة الأمم المتحدة التي تقف خرساء عمياء وصماء أمام تلك الجرائم البشعة التي يرتكبها يوميا الصرب الملاعين وأعوانهم ضد المسلمين بالبوسنة والهرسك، وضد مقدساتهم وحرماتهم ... والمسلمون هنا وهناك يبكون قليلا على إخوانهم وسرعان ما ينسون ما عانوا هم أنفسهم من ويلات الاستدمار الغاشم فتراهم ينددون تارة ويقدمون لهم بعض الإعانات تارة أخرى ولكنهم لا يغفلون أبدا عن إقامة شعائر وطنية يحتفلون بها في مناسبة من المناسبات وكأن الأمة الإسلامية تهنأ بعيش رغيد.

وما أحوج المسلمين اليوم في جميع بقاع الأرض أن يدركوا طبيعة المعركة وحقيقة القضية، فلا تلهيهم عنها تلك الأعلام الزائفة التي تتستر بها أحزاب الشرك والكفر... فإنهم لا يحاربون المسلمين في شتى بقاع العالم إلا على العقيدة، حقدا وحسدا من عند أنفسهم مهما تنوعت العلل والأسباب وكأن أجدادهم لم يشاهدوا قط سماحة المسلمين الأولين ولا عدالة الإسلام الحنيف إزاء الذين يخالفونهم في العقيدة، وكأنهم لم يعرفوا أن الإسلام قد ساهم بقسط كبير في بناء حضارتهم كما شهد بذلك أخيرا الأمير شارلز في إحدى محاضراته بجامعة أوكسفورد الإنكليزية...

فعلى المسلمين عامة أن يدركوا هذه الحقيقة وعلى إخواننا الأفغانيين خاصة الذين أوقعتهم أيدي الصهيونية العالمية وسذاجة عقولهم في جب العداوة والبغضاء، من أجل الوصول بأي ثمن إلى الحكم والسلطان، أن يجيبوا داعي الله ويلبوا قلبا وقالبا نداء رسول الله الكريم المبعوث " رحمة مهداة " نداءه الشهير: « لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ». وليرجعوا كافة إلى رشدهم وإلى بناء وحدتهم ووطنهم ويحذروا أن يلدغوا مرة أخرى من جحر الأعداء.

(ثانيا) تلك الثقة المطلقة في وعد الله سبحانه كما تبدو في قول سيدنا أبي بكر رضي الله عنه في غير تلعثم ولا تردد، والمشركون يعيبونه من قول صاحبه فما يزيد على أن يقول: صدق، ويراهنونه في أن يقول: صدق وهذه الثقة، وما فيراهن وهو واثق ثم يتحقق وعد الله في الأجل الذي حدده في بضع سنين . وهذه الثقة، وما أحوجنا إليها اليوم أكثر من أي وقت مضى، هي عدة كل ذي عقيدة في الجهاد الشاق الطويل، وتظل كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

(ثالثا) المسارعة برد الأمر كله لله: ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾. المسارعة في هذا الحادث وفي سواه. وتقرير هذه الحقيقة الكلية لتكون ميزان الموقف وميزان كل موقف. فالنصر والهزيمة وظهور الدول ودثورها، وضعفها وقوتها شأنه شأن سائر ما يقع في هذا الكون من أحداث ومن أحوال، مرده كله إلى الله تعالى، يصرفه كيف يشاء وفق حكمته ووفق مراده. وما الأحداث وما الأحوال إلا أثاراً لهذه الإرادة الأزلية المطلقة التي ليس لأحد عليها من سلطان.. ولا يدري أحد ما

وراءها من الحكمة، ولا يعرف مصادرها ومواردها إلا الله. وإذن فالتسليم والاستسلام هو اقصى ما يملكه البشر أمام الأحوال والأحداث التي يجريها الله وفق قدر مرسوم.

والعقيدة الاسلامية واضحة ومنطقية في هذا المجال. فهي ترد الأمر كله لله ولكنها لا تعفي البشر من الأخذ بالأسباب الطبيعية التي من شأنها أن تظهر النتائج إلى عالم الشهادة والواقع. أما أن تتحقق تلك النتائج فعلا أو لا تتحقق، فليس داخلا في التكليف، لأن مرد ذلك في النهاية إلى تدبير الله تعالى. أخرج الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه « أن أعرابيا ترك ناقته طليقة على باب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل يصلي قائلا: " توكلت على الله ". فقال له رسول الله عليه وسلم: اعقلها وتوكل ». فالتوكل في العقيدة الاسلامية مقيد بالأخذ بالأسباب ورد الأمر بعد ذلك إلى الله العزيز العليم.

فالأخبار بالمغيبات لدليل واضح على صدق نبوة سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكون القرآن الكريم منزلا من عند الله إذ لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا هو جل علاه.. ومن الأنباء الغيبية التي أتى بها القرآن الاخبار عن قصص الأولين من الأنبياء بأبلغ كلام وبتناسق لا يعرف له مثيل.. فهذا إعجاز واضع، لأن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لم يكن كاتبا ولا قارئا ولا عرف عنه أن جلس إلى أحبار اليهود ورهبان النصارى ورغم ذلك جاءت قصص الأنبياء عليهم السلام في القرآن كقصص إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى دليلا على أنه وحي يوحى. وعن ذلك يقول الله تعلى في سورة هود عليه السلام: ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فأصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ (49).

ومما يشهد للقرآن الكريم أنه وحي إلهي أن قصصه تخالف ما ورد في الكتب المقدسة السابقة وتسمو عليها، فإذا نظرنا إلى التوراة مثلا نراها تلصق ببعض الأنبياء أفعالا قبيحة لا يستسيغ العقل السليم صدورها من رجل لبيب فضلا عن أولئك الذين اصطفاهم ربهم لحضرته وارسلهم لهداية الخلق بوحيه، بينما القرآن يصفهم بالكمال وأحاسن الأعمال ويثني عليهم ويجعلهم قدوة صالحة لكل الأجيال.

فالقصص في القرآن لم يقصد بها تاريخ الرسول ولا تاريخ قومه وإنما المقصود بها ما في هذه القصص من دروس وعبر فيها هدي وعظات لكل داع إلى الحق ولكل مدعو إليه. وقد شهد بذلك

الدكتور " فيليب حتى " في كتابه " تاريخ العرب " فقال: " ويقصد القرآن من عرض هذه القصص التوصل إلى عبرة أخلاقية، وما القصد الأسنى مجرد سرد حكاية، بل البلوغ بالقارئ والسامع معا إلى مغزى سام أو عظة أدبية مثلى كأن يعلن للناس أن الله في القديم كان يجازي المستقيم على استقامته ويعاقب الشرير على شره ".

يتبع